الأب جوزيف دكاش

الراهب الشاعر

الخميس 2 آب 2012

للدكتور صادق مكي

عندما طلب مني أن أتحدث عن الأب جوزيف دكاش في مناسبة تكريم... كانت تتجاذبني فكرتان:

- تحذرني الأولى من الحديث عن رجل دين محترم لا أعرف عنه شيئاً، وذلك خوف التقصير عن أدائه حقه.
- وتدفعني الثانية إلى "المغامرة"، وخوض الموضوع، وذلك أيضاً لسببين:

أولهما أن أعرف عن هذا الأب المحترم ما يجب أن أعرفه، فحق رجل الدين على الناس التعرف إليه، والاستفادة من سجاياه، وتوجهاته الإلهية، والأنوار المضيئة التي تستطع في الأساس من رجال الدين، وتجعلهم القدوة، والمثال، والمرجع إذا جدّ الجد، وأظلم الليل، وانساقت البشرية في طريق الهاوية.

وثانيهما: أن أتابع تقصّي ما كنت شغوفاً بتقصّيه في السابق من معرفة ما يجمع بين رجل دين مسيحي فاضل، ورجل دين آخر مسلم، وفاضل أيضاً، لأستجلي الحقيقة التي أعرفها، والتي تربيت عليها في بيتنا وبيئتنا ومجتمعنا. وما يحثّنا عليه ديننا الذي هو الإسلام، دافعاً إلى التلاقي على المبادئ التي بُنيت عليها الأديان السماوية جميعها، من الأخوّة، والمحبة، والإخلاص لله وللدين، وعمل الخير، ومساعدة الضعيف، وطمأنة اللهيف... وغير ذلك من القيم...

وكان هذا السبب الثاني الذي دفعني إلى المغامرة هو الأقوى عندي، والذي سيطر على عقلي وفكري، وأعاد إلى ذاكرتي صوراً من القديم الذي تربَّيْنا عليه، من احترام رجل الدين مهما كان دينه أو مذهبه، وإجلاله، وتقديسه، والاعتقاد بأن جميع رجال الدين عند حُسن الظن بهم. وقد تربينا في قرانا الجنوبية مسيحيين ومسلمين، نعيش حياة مشتركة يساعد بعضنا بعضاً، ويعطف بعضنا على بعض، ونعيش حياة الأخوة بأبهى مظاهرها.

ولا أنسى يوم كان يمر إخواننا من المسيحيين في قريتنا قاصدين إلى السوق في النبطية- نهار الإثنين. ويكون بينهم رجل دين، فتأخذنا هيبته ووقاره، ومظهره... فنجد أنفسنا – نحن الأطفال- آنذاك- نفسح الطريق، ونقف صفين عن الجانبين، في خشوع ورهبة، نراقب الموكب حتى يعبر... في الذهاب إلى السوق والعودة منه.

كما لا أنسى يوم كانت أمهاتنا- وآباؤنا طبعاً- يدفعوننا في عيد الفصح إلى جني الأزهار، وتزيين البيوت وسلق البيض... للاحتفال مع إخواننا المسيحيين بعيد الفصح ومناسباته المجيدة.

في هذه الأجواء النفسية ارتسمت في مخيلتي صورة الأب جوزيف دكاش، وما كنت قد رأيته أو التقيت به من قبل، والصورة لا تكفي وحدها في الإنباء عن الرجال، فكيف إذا كان الرجل راهباً، يسعى في طريق القداسة، ويعلو، ويعلو، حتى يكاد يلمس السماء بيديه؟

وهنا عدت أستذكر الصورة المرسومة في ذهني عن قديسين عبروا الزمن، وعاشوا للناس منارات هداية، وقدّسهم القرآن الكريم، ورفعهم أعلى درجات.

ففي سورة البروج كانت- ولا زالت تستوقفني الآيات الكريمة: بسم الله الرحمن الرحيم **[وَالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ ۞ وَالْيَوْمِ المَوْعُودِ ۞ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۞ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ۞ النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۞ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ...]** .

وكل ذلك ضمن سياق الرواية التي يذكرها القرآن الكريم عن ذي نؤاس وهو أحد ملوك حِمْيَرَ المتهوّدين، والذي أراد أن يجبر المسيحيين من أهل مملكته على ترك دينهم، والعودة مثله إلى اليهودية، فأبوا ذلك، فخدّ في الأرض أخدوداً أضرم فيه ناراً عظيمة، وجلس على مقربة منها.

وكان يؤتى بالمسيحي المؤمن فيطلب منه أن يرتد عن المسيحية أو أن يرمي بنفسه في النار... وهؤلاء هم المؤمنون الذين يتحدث عنهم القرآن الكريم في تلك السورة المباركة.

وتكريم المؤمنين من النصارى ورد في أماكن أخرى من القرآن الكريم ففي سورة آل عمران مثلاً ورد قوله تعالى: [**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ**] (الآية 200)

وتأتي الصورة الثانية التي تعيش في ذهني دوماً، والتي تبين علاقة وحدة المفاهيم الدينية المشتركة التي تجمع الناس من ديانتين مختلفتين في المودة والمحبة والاحترام والتفاهم. ويتجلى ذلك في قوله تعالى: [**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ✹ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ✹ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ المُحْسِنِينَ**] (المادة 82-83-85).

وهنا أصل إلى الأب جوزيف دكاش، فأحاول أن أتعرف إليه من خلال ما أعرف من مواقف الكريم الكريم، فأقرأ كتبه، وما أملّ، ولا يمنعني من ذلك صوم، ولا عطش في أيام قيظ اشتد لهيبها... وتكون لي من قراءاتي قطرات من ماء زلال تذهب بالعطش وتعب الأيام، وضَنْك الصوم، وتذكرني بالحديث الشريف: للصائم فرحتان، فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه، ويقصد بالثانية الصلاة. إذن فإنكم تقدّرون مقدار ما كنت أرتاح عند قراءة ما كتب الأب جوزيف دكاش.

وأتدرج في القراءة من: نجاوى عند قبر رفقا، إلى: في سكون الليل فأرى ذلك الكاهن المتعبد في صورة القديسين، الذي يجد في الليل ملاذاً أشد أَمَنَةً من النهار، وفيه يقترب الإنسان من خالقه وكأنما تنقشع كل الحُجب من أمام ناظريه، فيرى ما لا يراه غيره، ويدرك من الحقائق ما لا يدركه سواه، ويعيش لحظات الأنس بالله، كما يعيش لحظات القلق من انحرافات الناس، وغَلَبَةِ الجهل، والبعد عن الحقيقة، مما يجعل لحظات الليل أسىً متواصلاً، وظلاماً دامساً، لا يخلصه منه إلا تذكر الله والعيش معه.

والليل في هذا زمن تقصر فيه المسافات بين الأرض والسماء، وتتجلى صورة الإله في الذهن كأعظم ما يكون، وأجمل ما يكون. ويقترب فيها الإنسان من خالقه إلى درجة كبيرة تكاد تكون فترة الذوبان في ذات الإله والاندماج معه، ولكن دون أن ينسى الأب دكاش أن بينه وبين الإله مسافة ما بين الابن وأبيه، وما بين العبد وسيده... ولكن الشعور بأن الإله أرحم من هؤلاء جميعاً، ومؤانسته أجلّ وأعظم وألذ من مجالسة الابن لأبيه والعبد لسيده، فرحمة الإله لا تبلغها رحمة الإنسان، والرحمة أشد أنساً للإنسان من أي أنس آخر.

على أن تأملات الأب دكاش في الليل لا تنسيه ما رسخ في نفسه من أمور الدنيا ومتاعبها التي كبّلت الإنسان وأبعدته عن خالقه، فتراه قلقاً على هذه الإنسانية التائهة في عالم الظلام، ذلك أنها ما اهتدت إلى الإله، ولا عرفت إرادته في الخليقة، ولا أدركت ما عنده من الرحمة، وانطلقت في غابات مظلمة لا قرار ولا نهاية لها، وكثرت فيها الوحوش، واشتد الجوع والعطش بالرغم من أنها تأكل كثيراً، ولكنها لا تشبع، وتشرب كثيراً، ولكنها لا ترتوي.

ويناجي الأب دكاش "سيد السادة": فيقول في مناجاته فلا سيِّد بعدك ولا سيِّد قبلك،

وحده السيِّد من آمن بك،

وصلى لك،

واتكل عليك...

فكأنه يعبر عما في نفسي من المشاعر والأحاسيس، ويشغلني ما يشغله من القضايا قضايا الناس وقضايا الخلق... وأشاركه في مناجاته من منهل آخر، في قوله تعالى:

[إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ✹الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ✹رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ✹رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ✹ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ المِيعَادَ] (آل عمران، 191).

وفي مكان آخر، يتحدث القرآن الكريم عن أمثال الأب جوزيف دكاش في تعبدهم، وزهدهم، وإيمانهم، وحرصهم على صلاح حال الرعية، ويبادرون إلى الإصلاح بجميع وجوهه... فيقول: [**مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ✹ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ✹ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ**] (سورة آل عمران 113...).

وموقف الأب دكاش مما آلت إليه أخلاق الناس، وتردي مفاهيمهم للدين، والأخلاق، وعلاقة الإنسان بخالقه، وعلاقته بأخيه الإنسان، وضياع القيم، وفساد المجتمع... يجعل أسى الأب دكاش أكبر من أسانا، وحزنه أعمق من حزننا، وهمومه أكثر من همومنا... ذلك أنه –كأب– يحمل هموم رعيته، وهموم الإنسانية، والواحد منا يكاد لا يحمل غير همومه.

ويتحول التأمل عند الأب دكاش إلى استغاثة الإنسان المتألم الذي يؤذيه، ويؤلمه ويحزنه أن تصير حالة الإنسان إلى ما صارت إليه (صفحة 35– استغاثة).

وتتمثل المفاهيم المسيحية من المحبة، والرحمة، والإيمان، والغفران، ومساعدة الناس... في ذات الأب دكاش، حتى ترى فيه، من خلال ما يكتب– وهو يقول بصدق ما يفكر فيه وما يكتبه– صورة المسيحي المؤمن بدينه، والمصدق لربه بكل ما أمره به، والساعي إلى تنفيذ مشيئة هذا الرب في الرعية... حتى أقول: إنه– على ما أرى– قد قطع مسافات كبيرة في درب القداسة، وأعتقد، بأنه لا بد واصل إلى الغاية التي يقصدها، فهو صادق العقيدة، عميق الإيمان، رقيق القلب، يؤلمه الكفر، ويفرحه الإيمان، ومعتقد بأن الحق هو الذي سينتصر في النهاية، وأن إرادة الله هي التي سوف تتحقق في الناس أجمعين، وفي كل واحد منا.

أما رفقا، فتبدو في مناجاة الأب دكاش تلك القديسة القدوة، التي وصلت في الارتقاء النفسي، الذي انعكس في تصرفاتها وأعمالها، ذلك المثال الذي يبهر النفوس التي لا تجد بعد ما وصلت إليه رفقا من القدسيّة ما يطمح إليه أحد، ويكتفي المؤمن بالاعتراف بهذه المنزلة الرفيعة للقديسة التي تجاوزت الأمداء جميعاً... وهو إذا ناجاها فإنما يعترف لها بالواقع، ويطلب منها أن

تعلّمه كيف يكون الارتقاء إلى مثل هذه الدرجات العُلى، كما يطمئن نفسه إلى أن أبواب السماء مُفتحةٌ أمام أمثال رفقا ليعرجوا في معارجها، ويقتربوا من الإله... فينسى المرتقي الصعاب، ويؤمن باللحاق بمواكب القديسين.

وتبدو هذه النجاوى مراجعة لأخلاق الناس في هذا العصر، وأسلوب تعاملهم، وعقيدتهم في شتى ميادين الحياة العملية والفكرية. وقليل ما يبدو في هذه الأخلاق ما يسر الراهب الذي امتلأت نفسه بالقداسة، ويقيس أخلاق الناس بأخلاق القديسين. وهنا تكون خيبة الأمل التي تخيف كل مفكر ملتزم بالأخلاق. ويأمل الكاتب ألا تكون هذه بداية التخلي عن الإنسان بسبب مخالفاته للشرعة الإلهية وأخلاق القديسين، و"يفرغ شحنة من الغضب على كل من حوله وما حوله" (صفحة 275).

ويستمر الغضب في نهاية النجاوى حتى يكاد يبلغ حد الثورة.

ويحق للراهب أن يثور على غير المنطقي، وغير الشرعي، وغير المألوف مما تربى عليه هذا الشعب، ويخالف ما جاءت به الشرائع الدينية.

أما عند قراءتي الكتاب الثالث "وهو معي" فقد كان أول ما لفت نظري شعار الأب دكاش (هو معي)، وهذا الشعار هو شعار النبي موسى عليه السلام، كما ورد في القرآن الكريم في سورة طه (الآية 46)، وسورة الشعراء (الآية 62)، وهذا أيضاً هو شعار مسيحي كما ورد في الصفحة الثانية من الكتاب.

وفي فهمي لهذا الشعار أجده على درجتين:

<u>الأولى</u>: أن الإنسان المؤمن يعيش على يقين بأن الله معه دائماً لا يتخلى عنه، ومثل ذلك ورد في القرآن الكريم عن الله تعالى عندما قال لموسى وهارون، وبعد أن أبديا خوفهما من ردّة فعل فرعون على دعوتهما، قالا: إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى. فقال الله تعالى لهما: إنني معكما أسمع وأرى.

<u>والثانية</u>: أن الذي يعيش على هذا اليقين الأول من أن الله معه ولا يتخلى عنه، يُتْبِعُهُ بيقين آخر بأن الله الذي هو معه هو الذي سيهديه إلى الصواب، ويأخذ بيده، ويحميه، وينصره.

وقد قالها موسى عندما أتبعه فرعون وجنوده بعد أن خرج بالمؤمنين من مصر، فقال بعضهم لموسى: إننا لمدركون، فأجابهم موسى جازماً: كلا إن معي ربي سيهدين. و(كلا) هنا أداة نفي وردع...

ولا يترك الأب دكاش في هذا الكتاب شيئاً لا يفكر فيه، لا قضية من القضايا الإنسانية والعقائدية الخطيرة الشأن إلا ويذكرها، وهو يفكر في الناس جميعاً، يُصّعِّدُ في السموات العلى أحياناً كثيرة، ويعيش بين الناس ويحمل همومهم، ويحاول أن يجد حلولاً لكل القضايا. وكأن الراهب مسؤول عن كل شيء، ويقع على عاتقه محاولة إيجاد حل لكل معضلة. وهكذا يكون الراهب، والسيّد والشيخ.. وكل رجل دين.

أما أسلوب الأب دكاش في كتاباته فهو أسلوب الوعظ والإرشاد، الذي يرقى باستعمال أساليب البيان حتى لا تبقى اللغة بسيطة، ساذجة، فلا تؤدي المراد،ويتجه باتجاه الأسلوب التصويري، الذي يعتمد أساليب البلاغة كلها من البيان، والبديع بمختلف صوره، فيشخّص هنا، ويجسّد هناك، ويشبّه، ويستعير...

إلى درجة أن تصير الجمل فيلماً تتعاقب فيه الصور واحدة إثر واحدة، في حشْدٍ من هذه الصور التي تتراكض، فيكاد القارئ أو السامع أو المشاهد أن لا يملّي العين من الصورة الأولى، حتى تتبعها الصورة الثانية، ويلتبس علينا الأمر، فنكاد أن لا نفهم الأولى فهماً كاملاً، ولا نكاد نفهم الثانية، وقد نتجاوزها إلى الصورة الثالثة... وهذا يكون حال النخبة من القراء، والمشاهدين، والسامعين، وممن اجتمعت لهم الثقافة والفكر، فكيف حال العامة من الناس، الذين حقهم علينا أن يفهموا ما نقول. وأخشى أن يكون حال الكثيرين كحالي التي وصفتها.

وهذه مشكلة الشعر الحديث، والأب دكاش بهذا شاعر مجيد على مقاييس هذا النوع من الشعر، وقد يكون كذلك على مقاييس الخليل بن أحمد الفراهيدي، وحبذا لو كان الأمر كذلك، فلو أخذنا سيدنا الأب بحلمه قليلاً، وقدّم لنا ما نستطيع إدراك معانيه بيسر أكبر، وصُوَرٍ أقل، وخيال معتدل، لكنّا أكثر سعادة بكل ما يكتب وما يقول.

وأخيراً، الأب جوزيف دكاش هو الشاعر الراهب، وبالشاعرية والرهبنة هو عقل كبير، وأديب قادر على إيصال ما يخالجه من المشاعر إلى الآخرين. وهو مرهف الإحساس، عميق التفكير، كما هو ظاهرة مهمة في عالم الأدب والفكر. ولعلنا نحن – أهل الأدب وأهل الفكر – أكثر الناس تقديراً لما يكتب، وأنساً بما يطرح من الأفكار، وما يجهد إليه من الإخلاص.

د. صادق مكي